والخصام مع أختها التي لم تكن على وفاق معها؛ «إذ كانت الخصومة والمقاطعة بينهما هي الحياة العادية. أما لحظات الصلح فكانت عابرة كسحب الصيف، أو استثناء، أو شذوذاً لايصدق إمكان بقائه الطرفان. وهل يمكن أن يقوم برد وسلام بين نار ونار؟..»[13].

وقد استطاعت الأم بطبعها هذا أن تسيطر على بيتها وروحها وأولادها سيطرة تامة.

ويذكر الحكيم أيضاً أن أباه كان، على عكس أمه، رجلاً قوي الشعور بمسؤوليته وواجبه بوصفه رب عائلة، كما كان «رجلاً رزيناً وقوراً مطبلاً في التفكير، متأملاً في الكلام قبل النطق به إلى حد يكاد يوحي ببطء الفهم والبديهة»[14].

وقد كان الحكيم ثمرة لقاء بين هذين الطرفين المتناقضين، كان من جهة يحس ـ أحياناً ـ بالثورة والانفعال الشديد في أعماقه وكأنه بركان «فيزوف» الذي ينشط ويخمد في فترات ودورات، على حد تعبيره[15].

وكان الحكيم يميل إلى الهدوء، والتعقل، والتأمل، والسرحان إلى درجة أن أمه كانت ما تفتأ تقول عنه: «إنه إنسان غريب لا أحد يعرفه سواي، حتى أصدقاؤه الذين يعرفونه يظلمونه، إن السكوت، والصمت، والتأمل، والسرحان.. كل هذا لم يأته مع الكبر، ولكنه لازمه منذ طفولته»[16]

وقد ورث الحكيم عن أبيه صفة نفسية أخرى، وهي الولع بالغرابة والاختراع، أو «التوليف» ـ كما يسميه.. كان أبوه ـ في شبابه ـ يحب أن يبتدع له بدعة في القانون، والاجتماع، والسلوك العام، وكل شيء، حتى التدخين فإنه أخذ يتساءل يوماً لماذا يصنع الناس السجائر من التبغ ولايصنعونها من الأعشاب الكثيرة التي تملأ أحقاق العطارين؟.. ثم راح يخترع سجائر «فلسفية» ـ على حد تعبير الأستاذ العقاد ـ قوامها نخبة من الأعشاب والزعتر خاصة[17].

وهذه الصفة النفسية انتقلت إلى توفيق الحكيم الذي لاحظها هو بنفسه في